

إلى مدينة قيصر

خرج امرؤ القيس من تيماء فى صحبة صديقه عمرو بن قمية بعد أن ترك فى القصر الأبلق ما كان معه من الأموال التى بقيت له من ميراث أبيه، والدروع الثمينة والتحف والسلاح، وكل ما تخلف من آثار الملك حجر، لتكون فيه وديعة حتى يعود.

وخلف هناك كذلك أخته العزيزة هنداً بنت حجر فى صحبة يزيد بن معاوية الجون، ابن عم أبيها. وقد فسح لهما السموءل فى قصره، وأضفى عليهما حمايته وكرمه، وسار امرؤ القيس فى وجهته فارغ البال من الهم على عرضه وأمواله وسلاحه، وكانت وجهته إلى جلق قاصداً ملك العرب بالشام الحارث الغسانى، يحمل إليه وصية من صديقه السموءل أن يوصله إلى قيصر، أو يوصى عليه بعض أصدقائه الكثيرين أصحاب الجاه والسلطان فى قسطنطينية العظمى لكى يوصلوه إلى قيصر.

أقام امرؤ القيس فى جلق أياماً فى ضيافة ملك العرب العظيم مع صديقه عمرو، ينعمان فى رياض غوطة البريض، ويرويان من مياه بردى العذبة، وكان الربيع الطالع يهز المروج ويبعث أنسامه الوديعه على جوانبها تداعبها وتناغيها، ويكسو الغصون حلية ساحرة من أزاهيره وأكمامه، ويملأ الجو عبقاً من أرواح النارنج

والليمون، ويفيض عليها طرباً من غناء الطير في مطالع الأصباح ومخانس الآصال. ولم يستطع امرؤ القيس أن يقاوم أثر هذا الربيع النابض الفائر، فإذا ينسى في مباحج جلق ومحاسنها أحزانه التي طالما أرقته وعذبتة في العامين المنصرمين، فجعل يغالط نفسه ويكاوحها حتى أحلها من قسمه الذي أقسمه - ذلك القسم الذي حرم به على نفسه الخمر واللهو حتى يتم انتقامه لأبيه، وقضى فيه السنوات يقاوم ميله ويعصى هواه.

لقد تطاول عليه المدى، وعدوه لا يزال يراوغه ويُفلته حتى أعجزه، وجعل أعوانه يفارقونه وينفضون من حوله؛ وألجأه إلى أن يهيم في الأرض وحده شريداً خائر النفس خائب الأمل، حتى انتهى به الأمر إلى أن يخرج من أرض العرب كلها طالباً مساعدة قوم لم يعرفهم، ولم يسبق له عهد بهم، ذاهباً نحو قيصر يحاول أن يجد عنده أمله الأخير في النصر ونيل الثأر. ولكنه مع كل ذلك خادع نفسه، وما زال بها حتى أوهمها أنه قد صار في حل من قسمه، وأن الخمر قد حلت له بعد أن كانت حراماً، وأن اللهو قد طاب له بعد أن كان حمى ممنوعاً. ألم يذهب بنو أسد من مخافته يضربون في أوعر الأرض؟ ألم يركبوا الفدافد ويقتحموا المهالك والمفاوز حتى لا يصل إليهم؟ ألم يقتل منهم شيوخاً كراماً وشباناً شجعاناً في المواقع التي سطا عليهم فيها؟ ألم يلجئهم إلى الاستعانة بالملوك والأكاسرة؟ لئن كان يريد الذهاب إلى قيصر فما ذلك إلا

ليسترجع ملكه، ويذل خصمه المنذر بن ماء السماء. أما بنو أسد الذين قتلوا أباه وكان عندهم ثأره فإنه قد شفى قلبه منهم وأذلهم وساقهم سوق الصيد المتعب المهيبض، بهذا خادع نفسه فى جلق حتى أقنعها، وأقبل على اللهو كالصديان فى القفر يقبل على الماء بعد طول سير. فجعل يعب الخمر عباً، ويلتهم اللذات التهاماً فى مجالس سمر حافلة، وحانات شراب ساخبة، بين قينات يعاطينه الراح، وندامى من أهل الشباب والترف يقاسمونه المجون، وهو يغنى لهم ويطربهم كما كان يغنى لأصحابه فى أول حياته إذ يهيم فى الأرض مع الخلاء والصعاليك. وعاد إلى نفسه الأولى، نفسه الحقيقية التى كانت تدفع به إلى متع الحياة ولهوها وتبعد به فى كل موطن عن جدها وعبوسها ومشقتها. فغنى بهند والرباب، وتغزل فى فرتنى والبسباسة، ولم تكفه الحانات بما فيها من راقصات متهتكات، فاختلس النظرات من خدور القصور، وتمتع بالضمير الفاسق إذا أعجزه الحجاب وقامت دونه الستور. ولقد تبدل فى جلق وانتكس فعاد الشاعر الحالم الماجن، وخلع عن نفسه عزيمة الثائر المحنق الفتاك.

وكان صديقه عمرو يشاركه أحياناً فى بعض لهوه، ولكنه كان فى أكثر وقته ممتلئ القلب مشغولاً بتلك الصورة التى استحوزت على نفسه، تلك الصورة التى تمثلها منذ أخبره أبوه بحقيقة أمه، وهو على فراش موته، تلك الأم الجميلة التى لم يرها ولم يعرفها،

والتي لا يدري هل يصل إليها أو تقوم دونها أبهة الملك فتحول بينه وبين الوصول إليها. فكانت صورتها تلازمه حيثما أقام، حتى لم يجد فيه امرؤ القيس أنيسًا نديمًا، فكان يتركه في أكثر لياليه ينجى نفسه في جوار بردى حتى يعود وحده إلى الدار التي كانا ينزلان بها في قصر الملك الغساني.

كان عمرو يتمثل تلك الأم في ملكها ومجدها، تلك الأم التي لا تذكره ولا تتجه إليه بالحنين. وهل تدع لها حياتها المزدهمة فراغًا للتفكير في مثله؟ إنه ذلك الوليد الذي أثمرته لها حياة الدنس مع رجل عربي غريب، جمعتها به الحاجة في أسود لياليها وأعمقها شقاءً، عندما كانت تلتمس إمساك الرمق من أركان الحانات المظلمة التي تفوح فيها روائح الخمر، وتملؤها صيحات الدعارة الوحشية. إنها بغير شك تكتم هذه الذكريات وتقذف بها إلى أعماق مواضع النسيان في صدرها. أتراها إذا رأتة تحب أن تضمه بين ذراعيها، كما تحب الأم أن تضم إليها وليدها بعد طول الغيبة؟ أم تراها ترفع يديها في وجهه صارخة صرخة الفزع كمن يرى شبحًا مخيفًا؟ ولكن قلبه كان مع كل ذلك لا يفكر إلا فيها.

وكلما ملأه اليأس منها عاد إليه الأمل يغرر به ويستهويه كما يستهوى السراب المسافر الظمآن في فسيح القفر، فكان يحدث نفسه بأنه سوف يراها، وحسبه منها أن يراها مرة ويتملى بمطلع وجهها المليح حينًا، أو لعله يستطيع أن يقبل يديها الصغيرتين،

وينظر إلى عينيها اللامعتين اللتين كان أبوه يذكر سحرهما
وابتسامتهما وهو يتحدث إليه على فراش موته.
سار الصديقان بعد أن انقضت مدة إقامتهما فى جلق ذاهبين
إلى الشمال وهما ثائرا الشجن، وتركا وراءهما رياض الغوطة
وقصور دمشق، وكانا يسيران صامتين وكل منهما غارق فى أحلامه
وذكرياته. وكان امرؤ القيس يتلفت وراءه كأنه يريد أن يمتع نظره
مرة أخيرة من مراتع لهوه التى يوشك أن يغادرها. وأما عمرو فكان
يتطلع أمامه يريد أن يستشف ما وراء حجب الغيب فى الآفاق التى
هو مقبل عليها. ولما أوغل بهما السير، وغابت عنهما آفاق دمشق،
نظر الشاعر إلى صديقه وهو يتنفس وقال فى نغمة حنين:

فلما بدا حوران فى الآل دونهم نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاورنا حماة وشيزرا
لكنه وجد صديقه واجمًا لا يطرب معه، فقرب مطيته إليه وقال
له: «أسفر يا عمرو. ما بالك حزينًا؟».

فلاحت على وجه الفتى ابتسامة ضئيلة حزينة وتنفس نفسًا
عميقًا وقال: «وهل لمثلنى غير ما ترى من الحزن؟».
فقال امرؤ القيس فى خفة مشيرًا إلى المنظر البديع الذى
حولهما: «ألا تهتز نفسك إلى هذا الجمال يا عمرو؟ املأ صدرك من
هذا الهواء، واملأ عينيك من حسن هذه الربى».
فقال عمرو فى فتور: «ليت شعرى ماذا نجد أمامنا؟».

ورفع عينيه إلى صاحبه، وكانت الدموع تملؤها. فقال
امرؤ القيس، وقد ظن أنه يشفق من طول السفر: «لا عليك يا أخى
من مشقة السير، وتأمل ما وراءه».

فقال عمرو وقد رفع يده يمسح عينيه: «لا أبالي مشقة، ألا ليت
شعري كيف ألقاها؟ ألا ليت شعري هل أستطيع أن أرى أمي؟».
فأجابه امرؤ القيس ولا يزال مرحًا: «سوف تجدها فاتحة لك
ذراعيها، سوف تضمك باكية متلهفة، إذ تجد ولدها بعد طول
فراق. إنما هي ليال قليلة. إنما هي ليال قليلة».
ثم جعل يتغنى وهو يضحك صديقه قائلاً:

«أرى أم عمرو دمعتها قد تحدرت
بكاءً على عمرو وما كان أصبراً
إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة
وراء الحسى من مدافع قيصر»

ثم ضرب فرسه فسبق صاحبه واستمر يغنى بصوت خفيض
ويقول:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنَّا لاحقان بقيصر
فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

ثم صمت وعاد إلى ذكرياته يناجى بها نفسه، ويتغنى فى شعره
بترديد صور لذاته، وما زالا حتى بلغا القرية التى كانت مقصدهما
تلك الليلة.

بعد أسبوعين من هذا السفر الطويل لاحت لهما مياه البحر
الزرقاء، وبدأت لأعينهما قصور قسطنطينية العظمى تلمع فى شمس
الربيع، مشرفة على الخليج ومنحدرة إليه كالحسنة تداعب الموج
بقدميها.

فوقفا حيناً يتأملان ماء البحر الأزرق، ومن ورائه الجبل
الأخضر، وفى جنباته قطع من الجزائر الزبرجدية تأتلق فيها
القصور البيضاء. وكان عمرو ينقل عينيه بين القصور يتوسم أيها
قصر أمه، ويسائل نفسه: كيف ينفذ من ثنايا هذا الغنى العظيم،
وكيف يجد سبيله بين كل هذه القصور السامقة؛ ولم يملك أن التفت
إلى نفسه فى ثيابه الرثة الغريبة التى علاها وعت السفر، وإلى
لون يديه اللتين قد لوحتهما الشمس، وقشفتها طول الجوع والتعب
ولفح الهواء، فخارت نفسه، وارتمى على جانب الشاطئ مضطرب
الفؤاد دافع العين. فالتفت إليه امرؤ القيس، وامتلاً قلبه بالعطف
عليه، وأخذ يواسيه، ويحاول إدخال السرور إلى قلبه، حتى
استطاع بعد حين أن يرد إليه نفسه، وأن ينفذ الأمل إليه.

وكانت على مقربة منهما سفينة تريد أن تطلع، فذهب نحوها،
وامرؤ القيس يسند صاحبه حتى نزلا فيها والناس ينظرون إليهما
في لفتة سريعة، إذ لم يكون عجباً لدى الروم أن يهبط إليهم من
أهل الصحراء جماعات بين حين وحين، ليحملوا إليهم تجارة،
أو ليشتروا من عاصمتهم سلعاً، أو ليدخلوا فى الجيش العظيم،
الذى كان فيه أقوام من أطراف الأرض البعيدة، حشدوا للدفاع
عن الدولة وخوض حروبها فى الشرق والغرب، يحاربون جميعاً
بسيف قيصر، ويظلمهم جميعاً علم قيصر.

فعبرا الخليج إلى محط آمالهما بعد حين، ولم يجدا مشقة فى
بلوع قصر الأمير الذى حملا إليه رسائل الحارث الغسانى، فقد كان
قصر الأمير حنا رئيس الحرس علماً من أعلام العاصمة الكبرى.

* * *